

## الفكاهة في شعر طاهر أبو فاشا

في عام ١٩٨٩م. رحل عن عالمنا شيخنا وصديقنا آخر ظرفاء العصر من جيل شعراء أبوللو وهو الشاعر طاهر أبو فاشا رحمه الله ، وقد كانت البسمة والدعابة صفتين ملازمتين له لا تفارقانه . وكنا نسمع منه في أخريات حياته عبارة يردها كثيراً ، وهي أنه أنفق عمره كله في الهواء ، يشير بذلك إلى أربعين عاماً قضاها في العمل بالإذاعة ، فقد كتب مئات الحلقات من مسلسلة الإذاعي الشهير ( ألف ليلة وليلة ) فضلاً عن عشرات الأغنيات والأوبريتات والبرامج .

ويبدو أنه ندم على ذلك الوقت الطويل الذي لو كان استثمره في التأليف المطبوع لكان أبقى أثراً وأطول عمراً . وبخاصة أنه كان راوية وحافظاً وهاضماً لتراثنا الأدبي بعصوره المختلفة ، وكان ذا ولع خاص بأخبار الطراف والمتماجنين من الشعراء مما يدل على تلاقي روحه بأرواحهم على طول العهد ، برغم أنه كان طاهر السلوك وكان من لوازمه الفكاهة إذا وقف متحدثاً أو خطيباً أن ينهي كلامه بهذه العبارة الطريفة : “ مع تحيات أخيكم الذي قال للحنا : حاشا ، طاهر أبو فاشا ” .

والفكاهة في شعر طاهر أبو فاشا متنوعة ، منها ما يقوم على السخرية بظاهرة اجتماعية ، ومنها ما يقوم على السخرية من أفراد بأعيانهم ، ومنها ما يمثل نقداً لأوضاع مستهجنة . فمن ذلك قصيدته التي أسماها ( الحجاب ) وألقاها في مناظرة أقيمت حول موضوع ( السفور والحجاب ) وقد كانت المناظرات علامة

مميزة في حياتنا الأدبية في مصر في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين وتعتمد المناظرة على قطبين كبيرين من أعلام المفكرين أو الكتاب أو الصحفيين يتبنى كل منهما أحد جانبي المناظرة ويدافع عنه ، وتكون مهمة الآخر تفنيد آراء صاحبه ومحاولة إقناع الجمهور بالرأي الآخر. ومن أشهر تلك المناظرات تلك المناظرة التي أقيمت حول " العلم والأدب وأيهما أنفع للناس ؟ " وكان الذي يدافع عن أهمية العلم في حياة الناي عميد الأدب العربي الراحل د. طه حسين ، وكان الذي يقلل من قيمة العلم ويدافع عن أهمية الأدب العالم الراحل الكبير الدكتور علي مصطفى مشرفة ، وقد أبلى كل منهما بلاءً حسناً فيما عهد إليه به .

والقصيدة التي نحن بصدها تبني فيها أبو فاشا الدفاع عن الحجاب وأيد دفاعه بحجج كثيرة منها ما لبس ثوب الفكاكة فهو يتساءل هل يأتي يوم تنقلب فيه كل الأوضاع وترأس المرأة فيه الرجال ؟ .

وتتولى جلائل الأعمال ، فهذه امرأة تؤم المصلين في المساجد ، وهذه امرأة تلعب المصارعة ، وهؤلاء نسوة يعملن في دواوين الحكومة ويتركن أطفالهن في بيوتهن ويربينهم من خلال المكالمات الهاتفية !! :

يا مصر — مالك تندين	هيجت لي الشجن الكمين
تبكين حظك في الشبا	ب وأنت أم العالمين !؟
ويح الكنانة من بني	ها أنهم بسس البنون
عكفوا على التقليد لا	متورعين مفكرين

رباه إن القوم قد  
 قد ضيعوا مجد الجدود  
 وإذا أضاعوا الخالدا  
 فدعوا إلى نبذ الحجا  
 وتغمطوا نور الهدا  
 فسقط ذئاب الغي تع  
 يا قوم مرحمة بمص  
 مسخت يد التقليد ما  
 هدمت مساحي الجهل ما  
 حتى إذا اشتد الأسى  
 طعنت شبا التقليد ما  
 سفهوا وباءوا خاسرين  
 وأخلفوا أمم البنين  
 ت فما عساهم يحفظون  
 ب وشوهوا خلق اليقين  
 ية وازدروا الحق المبين  
 بث بالفضيلة في العرين  
 صر فإن مصر على شجون  
 زانت يد البلد الأمين  
 شادت عقول المصلحين  
 وسجت خطوب المفسدين  
 نعتز من وطن ودين

وتستمر تساؤلات الشاعر الساخرة وتتمادي خيالاته إلى اليوم الذي يرى فيه الرجال يطبخون في المطابخ ويكنسون المنازل ويلبسون البراقع والحجاب ، في حين تخرج النساء سافرات أو متطربشات :

فترى الحمير الناطقا  
 وترى النساء الناعما  
 هذي إمام في المسا  
 ت على متون العاملين!!  
 ت بكل "شغل" يرتضين  
 جد تنصح المتهمين

والقوم بالطرف الكحيم  
 هذا : وتلك مصارعُ  
 إن رجرجت أكفالهـا  
 فترى الأنوثة قد أشا  
 وترى النساء على المكا  
 فإذا بكت أطفالهـا  
 في حال أن ذوي الشـوا  
 ياليت شعري هل تسو  
 فترى الرجال بكل بيـ  
 وترى النساء مطربشا  
 ويح الكنانة من بنيـ  
 بالله يا أرض ابلعيـ  
 بالله يا شهب ارجميـ  
 بل عن النصيحة ذاهلون  
 بطل كرأي الحاكمين  
 قالوا لها عضل متين  
 حت وجهها في أي هون  
 تب عاملات في مجون  
 طلبتـهم " بالتليفون "  
 رب في الأزقة عاطلون  
 د المرهفات اللاعبين  
 ست طابخين وكانسين  
 ت والرجال مبرقعين  
 هـا إنهم بئس البنون  
 هم إنهم لا يعقلون  
 هم إنهم لا يفقهون

وتبلغ السخرية عند طاهر أبو فاشا ذروة روعتها في قصيدته ( أديب ) التي يتناول فيها بالتهكم اللاذع واحداً من أديباء الأدب والفلسفة فيسأله أسئلة مفحمة تذكرنا بتلك الأسئلة التي وجهها الجاحظ إلى صديقه " أحمد بن المدبر " في رسالته

الشهيرة ( الترييح والتدوير ) ويعتذر أبو فاشا للأديب المغرور مقدماً عما قد يقع فيه من خطأ وهو يوجه أسئلة :

أجبنني فمثلك ما أجدره	نديد " أرسطو " ضريب " هوميرو "
مثلك من يقبل المعذره	وإن أنا لم أحسن السؤال لكنَّ
على ما رأيت ، وما لم تره	رويدك حدث فمنك الحديث
" بأبجد " من معضل لم نره ؟	فداؤك باقل ماذا رأيت
وماذا ترى في " رغيف " الذرة !؟	أفي العلم أن " الفطير " لذيد ؟؟
وأعيت عقول ذوي المقدره !!	مسائل حيرت الباحثين

ويصور أبو فاشا صاحبه على حقيقته فهو يسأله لماذا تتعاضم إذا كنت في موقف تافه ، وتتصاغرو أنت بين العظماء حتى كأنك كرة صغيرة ؟ ولماذا تنفتح كالأسد إذا أحسست بالأمان فإذا جد الجد صرت كالدجاج الرعديد ؟ :

سألتك لم أنت بين السفاسـ	ف ثبت وبين العظام كرة ؟؟
أيوم النزال ترى كالدجاج	ويوم الأمان ترى قسورة ؟؟
إذا لديك صاح على ربوة	تأمله يوماً على مجزرة !!

ومن أشهر قصائد أبو فاشا قصيدته ( رجعة إلى موسى ) ومويس هذا نُهير يمر بمدينة الزقازيق ، كانت للشاعر على ضفافه ذكريات أيام الشباب حين كان طالباً يدرس بمعهد الزقازيق الديني الأزهري في أواخر عشرينيات القرن العشرين .

وقد نظم أبو فاشا هذه القصيدة في سنوات عمره الأخيرة حين مرّ على هذا  
الزهر في إحدى سفرياته فجاشت نفسه بذكريات الشباب فتحدث عن هذا الزهر  
حديث المحب الواله :

وصل الركبُ يا نديم فهاتِ هذه رملتي وتلك رباتي  
الرياض اللفاء والررف الخضر ومغني الصبا وملهى اللداتِ  
ومغاني عمّاتك النخل فرعاء صموتاً كعهدها قوائمِ  
ومويس السكران راوية الحب وساقى لحونه الثمالاتِ  
معبد الراهب الخليع بساطٌ للندامي وموعداً للغواةِ  
خطر الفنُّ حوله فجثا يستغفر الحسن والعيون اللواتي  
وعلى صدره بغام حنين ، وعلى شطّهُ عرام سقاة  
أنا أيضاً من السقاة ولي في ذلك الشطّ قصتي ورواتي  
فوق هذا الثرى سكبتُ من العمر سنيناً عصرتها من حياتي  
وعلى هذه الرمال تناولت كتاب المأساة والمسلاة

ثم يتذكر الشاعر أيام طلب العلم في شبابه بما فيها من حلو ومر ، فهو يتذكر  
شموخ المعهد الديني وأساتذته العظماء الكبار الزاهدين الثقّات . ثم يتذكر أحد  
رفاقه الذي كان ثقیل الظل كأنه هامش من تلك الهوامش التي تثقل على قارئ  
الكتب ، وكان من لوازم رفيقه ذاك إذا تكلم أن يثور ويتصايح وينفعل ويجادل  
جدالاً عقيماً وتكثر حروف القاف في كلامه :

يا سقي الله بالزقازيق أيام صبايَ النواضر العطراتِ  
وسنيناً كأنها طرفة العين خفافاً مرزناً كاللحظاتِ  
يسترقن الخطى إلى شاطئ النسيان في موكب رهيب الصماتِ  
من ترى أيقظ الخواطر حولي وأثار المطويَّ من صفحتي  
وأعاد الأيام والمعهد السامق مسرّوج بالنجوم الهداةِ  
الفحول الأعلام أمثلة الزهد وشيخانة العدول الثقاتِ  
ورفيق كأنه هامش الشرح إذا صات يمزغُ القافاتِ  
حُبليُّ كأنه الجمل الأورق صحَّابة كثير اللُّتاتِ

وكان طعام طلاب الأزهر آنذاك - وكانوا يلقبون بالمجاورين - مضرب  
المثل في الرداءة والحطة ، فكان الريفيون منهم يأتون معهم من الريف بالمش  
ويضيفون إليه الشطة الكمون والفلفل الأسود والخل ، ويضربون هذا الخليط حتى  
يسمك قوامه فيجعلونه إداماً لهم . وكان أبو فاشا رحمه الله يحدثنا عن هذا الخليط  
العجيب الحارق ويسميه ( بغيره ) إشارة إلى قول الشاعر :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره      تعددت الأسباب والموت واحدٌ

وهو في قصيدته السابقة لا يفوته أن يذكر لنا كيف هذا الطعام النضيج  
المفلفل يسحر المجاورين فيتناولون ويتصايحون إذا مدت المائدة ويتركون المتون  
والحواشي وينهلون على طعامهم ذاك فيلتهمون التهاماً :

ونضيج مفلفل لاذع الطعمة يشوي أصابعي ولهاتي  
هو زاد المسافرين بلا زادٍ وقوتُ المحتاج للأقواتِ  
يتصّبى المجاورين فننقض عليه كالفاتحين الغزاةِ  
اتركُ المتن واطو حاشية السعد وأدرك شيخون قبل الفواتِ  
أنا من مازنٍ ومازنٍ مني والليالي القمراء من صدحاتي